الكسائي والفراء والنحو الكوفي

بحث أعده

الدكتور / عبد العزيز علي صالح رضوان

أستاذ مساعد

بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر بالقاهرة

وبكلية الشريعة واللغة العربية بالقصيم

الكسائي والفـرّاء والنحو الكوفي

المدرسة الكوفية

شـكّل النحو الكوفي علي يدي زعيمي المدرسة الكوفية الكسائي والفـرّاء، وبذلك برز للوجود مذهب جديد مستقل تماما مما جعل أصحاب كتب الطبقات والتراجم يعرضون في المسائل المختلفة وجهتي النظـر المتقابلتـين في المدرستـين البصرية والـكوفية. فما الخطوات والظروف التي ساعدت علي ظهور هذه المدرسة؟ كيف نشأت؟ ومتى كان البدء والانتهاء؟ أسئلة تدور بالخاطر وتفرض نفسها على دارسي اللغويات بوجه خاص. وفي محاولة للاجابة عن هذه الأسئلة وتلك الخواطر نقول:

ظـلّ النحو ـ طيلة قرن من الزمان ـ بصريا محضا، ذلك أن الكوفة تركت للبصرة وضع نقط الإعراب في الذكر الحكيم، ووضع نقط الإعجام والأنظار النحوية والصرفية الأولى التي تبلورت عند ابن أبي اسحاق، والتي أقام عليها قانوني القياس والتعليل، وقد عكف أهل العربية في البصرة والكوفة يأخـذون النحـو من معاهـد البصرة، ثم انتشروا في الأمصار، في الكوفة أولا، وفي بغداد ثانيا، ثم في مصر والمغرب والأندلس.

وظلت البصرة وحدها تقوم بعبء هذا العمل الذي كان قرآنيا خالصا ثم أصبح قرآنيا لغويا، ثم أصبح لغويا خالصا قرابة قرن من الزمان من منتصف القرن الأول الهجري تقريبا إلى منتصف القرن الثاني ـ والكسائي ـ وهو أول شيوخ النحو الكوفي توفى سنة ١٨٩ هـ ولم يدرس النحو إلا على كبر، كما كان الفـرّاء يقول(١) . ذلك أن الكوفة كانت في شغل عن كل ذلك بالفقه ووضع أصوله ومقاييسه وفتاواه وبالقراءات ورواياتها حتى حظيت بمذهب فقهي هو مذهب أبي حنيفة وبثلاثة من القراء السبعة المشهورة.

---

(١) أبو البركات بن الأنبيارى : نزهة الالبا ٨٢ .

وإذا أردنا أن نؤرخ لمدرسة الكوفة فينبغي أن نؤرخ للكسائي، لأنه النحوي الأول (الذي رسم للكوفيين رسو ما يعملون عليها) كما قال أبو الفرج الأصفهاني(٢) ، ولأنه (عالم أهل الكوفة وإمامهم) كما قال السيوطي(٣).

وكما بدأت بالكسائي، فقد ختمت بثعلب، وبناء على ذلك تكون مدرسة الكوفة قد استمرت قرابة قرن ونصف من الزمان، أي من منتصف القرن الثاني الهجري تقريبا إلى أواخر القرن الثالث على وجه التقريب.

أما الأئمة الذين كان لهم أثر في إقامة هذه المدرسة وإنمائها فهم ثلاثة، هم أساتذتها، ومرجع طلابها، وهم: على بن حمزة الكسائي ويحى بن زياد الفراء ، وأحمد بن يحيى ابن ثعلب.

هؤلاء الثلاثة هم الذين بدئت بهم المدرسة وختمت وعلى أقوالهم تأسست ونمت، وتخرج فيها الطلاب، وأكثر ما روي في كتب النحو من آراء وأقوال إنما هو لهؤلاء الأئمة الثلاثة. أما من سواهم فهم إما أصحاب الكسائي وإما أصحاب الفـرَّاء، وأقوالهم المروية قلية لا تعين على رسم صورة واضحة، ولا تمثل وجهة نظر مستقلة، فأصحاب الكسائي يرددون أقوال الكسائي وقليل ما هم أولئك الذين لهم آراء خاصة، كهشام بن معاوية الضرير وهو أنبه تلاميذه بعد الفرَّاء. وأصحاب الفرَّاء إنما هم حملة اقواله، وحفظة مذهبه، وأما أصحاب ثعلب فليسوا من رجال هذه المدرسة، وإنما ينتمون إلى المدرسة الانتخابية التي قامت على خلق المنهجين من المدرستين البصرية والكوفية، لأنهم أخذوا عن بصريين وكوفيين، وتأثروا بهؤلاء وهؤلاء، ولا نستثنى منهم إلا أبا بكر بن الأنباري الذي ترسم خطى الكوفيين، وتأثر أستاذه أبا العباس، وعرف بتعصبه ونقوله الكثـيرة عن شيوخ المدرسة الكوفية.

---

(٢) الأغانى : ١٠٢ . ساسي.

(٣) المزهر ٢ : ٢٥٤

وعادة تذكر كتب التراجم أن أول نحوي من الكوفة هو أبو جعفر الرؤاسي ومعاذ الهراء. أما الرؤاسي فيقول مترجموه إنه أخذ النحو عن عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء، وعاد إلى الكوفة فتتلمذ عليه الكسائي، وألّف لتلاميذه كتابا في النحو سماه (الفيصل) وكان يزعم أن كل ما في كتاب سيبويه من قوله (وقال الكوفي) إنما يعنيه، غير أن الكتاب يخلو تماما من هذه الكلمة، وإن كان قد ذكر أهل الكوفة مع بعض القراءات في ثلاثة مواضع(٤). ولا جدال أن آراءه لم تكن ذات قيمة نحوية، وإلا لورد ذكره في كتب النحو التالية لعصره. يقول أبو حاتم: (كان بالكوفة نحوي يقال له أبو جعفر الرؤاسي، وهو مطروح العلم، وليس بشيء)(٥). وأما معاصره معاذ الهراء فلم يكن حظه بأحسن من الرؤاسي إلا فيما يروى أنه جلس لاملاء ما أخذه عن نحاة البصرة وكان ممن أخذ عنه الفرّاء، وكل ما أثر عنه أنه كان يعرض لبعض مسائل التصريف، ولكنّ علمه بالصرف لم يزد عن علم الرؤاسي في النحو، فعلم كلاهما كان محدودا لا غناء فيه ولا شيء يميزه عن علم البصرة، اللهم إلا محاولات معاذ الهراء في علم الصرف وما ينسب إليه من أنه واضع علم الصرف. إلا أن ذلك لم يثبت علميا على وجه اليقين .

فالنحو الكوفي إذن يبدأ بدءا حقيقيا بالكسائي وتلميذه الفرّاء فهما اللذان رسما صورة هذا النحو ووضعا أسسه وأصوله وأعداه لتكون له خواصه التي يستقل بها عن النحو البصري، مرتبين لمقدماته، ومدققين في قواعده، ومتخذين له الأسباب التي ترفع بنيانه وتبقيه في مواجهة النحو البصري.

هذه عجالة أو مقدمة أوردناها لتكون ضوءا ينير لنا طريق البحث ويلقى على الشخصيتين موضوع البحث شعاعا من نور.

---

(٤) كتاب سيبويه للنجدى ص ٩٧ ومدارس نحوية للدكتور شوقي ضيف ١٥٤.

(٥) مراتب النحويين ٢٤ .

١ ـ الكسائي

هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبدالله بن بهمن بن فيروز الكسائي النحوي الكوفي مولى بني أسد، أحد القراء السبعة، وهو من أصل فارسي من سواد العراق كان من أهل (باحمشا) ودخل الكوفة وهو غلام، ونشأ بها وتلقى العلم على علمائها، ثم طاف بالبلاد واستوطن بغداد بعد أن استقدمه الخليفة المهدي ليسأله عن فعل الأمر من (السواك) بعد أن عجز عنه المؤدب السابق للرشيد، وحين وفق الكسائي أمر له بعشرة آلاف درهم، وعهد إليه بتأديب الرشيد ثم كان مؤدّب الأمين من بعده.

شيوخه: وقد أكبّ منذ نشأته على حلقات القراء فأخذ عن سليمان إبن الأرقم راوي قراءة الحسن البصري، وأبي بكر شعبة بن عياش راوي قراءة عاصم بن أبي النجود إمام قراء الكوفة في الجيل السابق للكسائي، وسفيان بن عيينة راوي قراء عبدالله بن كثير إمام قراء مكة. ولزم حلقة حمزة بن حبيب الزيات المتوفي سنة ١٥٦ للهجرة إمام قراء الكوفيين لعصره، حتى حذق قراءته بعد أن أخذ القراءة عنه عرضا أربع مرات، وعليه اعتماده، ويقال إنه لقّب (بالكسائي) في مجالسه لأنه كان يلبس كساء أسود ثمينا، ويقال: بل لقّب بذلك لأنه أحرم في كساء. وكان فطنا ذكيا، فرأى أنه لن يبرع في قراءة آي الذكر الحكيم إلا إذا عرف إعرابه، فاختلف إلى حلقات معاذ بن مسلم الهـرَّاء، وأبي جعفر الـرّؤاسي حتى استوفى ما عندهما، وكان قد سمع عن البصرة ومعاهدها، وعن أستاذ العربية الخليل بن أحمد الفراهيدي، فشـدّ الرحال إليها ليأخذ العربية عن علمائها، وأخذ ينتقل بين حلقات عيسى بن عمر الثقفي المتوفي سنة ١٤٩ هـ وأبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب ثم عكف على حلقة الخليل بن أحمد الفراهيدي فبهره الخليل بما سمع منه وراعته روايته لأشعار العرب وأقوالهم، ثم سأله عن مصادر علمه هذا. فقال له الخليل: بوادي الحجاز ونجد وتهامة. فخرج إلى البوادي يتنقل بين أعرابها، يسمع منهم، ويدون ما يسمعه من

لغات حتى اجتمع له مما دوّن شيء كثير حتى قال المؤرخون: إنه أنفذ في كتابة ما سمع خمس عشرة قنينة حبر سوى ما حفظ(٦).

الكسائي أستاذا :

مـرّ على ترحاله إلى البوادي وتجواله فيها زمن طويل رجع بعده إلى البصرة وهو شديد الرغبة في أن يرى الخليل ويجلس إلى مجلسه مرة أخرى، ولكنّ الخليل كان قد مات، وتصدّر المجلس يونس بن حبيب البصري. واتّـصل به الكسائي، وأخذ عنه وجادله في مسائل كثيرة، أقـرّ له يونس فيها وصـدّره في موضعه، وكان ذلك اجازة له أن يرأس مجالس الدرس وأنه يضع نفسه موضع الأساتيذ، فرجع إلى الكوفة، ليذيع فيها علمه وعلم شيوخه. وذلك أنه رجع من رحلته هذه وقد بسط لسانه وذلّل له منطقه واستقامت فصاحته وعربيته، وأخذ يستغل ذلك استغلالا حسنا في قراءته للذكر الحكيم. فكان يتلو القرآن على الناس من أوله إلى آخره، والناس من حوله يسمعون ويكتبون مصاحفهم. وذاعت شهرته فطلبه المهدي ليتخذه مؤدبا لابنه هارون الرشيد، حتى ولي الخلافة بعد أبيه فأتخذه مؤدبا لابنيه الأمين والمأمون. وظلّ يقريء الناس مدة في بغداد بقراءة حمزة، ثم اختار لنفسه قراءة صارت إحدى القراءات السبع المتواترة وأقرأ بها خلقا كثيرا. وكان الرشيد يجلّه ويوقره ويفسح له في مجالسه، وكثيرا ما كان يتخذه إمامه في صلواته ورفيقه في غزواته ومقامه بالرقّة، وكذلك فعل ولداه الأمين والمأمون. ولم يكتف الكسائي بما أخذه من اللغة وشواردها عن البدو الخلّص في الجزيرة العربية فمضى بكثير من سماعه عن اعراب الحطمة، وهم عشيرة من بني عبدالقيس نزلت بغداد وأقامت بها، وكأنه لم يجد بأسا في الأخذ عن هؤلاء الأعراب، بينما كان البصريون لا يروون اللغة عن أمثالهم من العرب المتحضرين الذين يمكن أن يكون قد دخل الفساد على ألسنتهم، وسرعان ما ظهر

(٦) أنظر ترجمة الكسائي: أبا الطيب اللغوى ص ٧٤ والزبيدى ١٣٨ والفهرست ١٠٣ ونزهة الألبا ٦٧ و ٧٥ وتاريخ بغداد ١١ : ٤٠٣ واللباب في الأنساب ٣ : ٤٠ وتاريخ بن كثير ١١ : ٢٠١ وطبقات القراء لابن الجزرى ١ : ٥٣٥ ومرآة الجنان ١ : ٤٢١ وشذرات الذهب ١ : ٣٢١، وروضات الجنات ٤٧١ والنجوم الزاهرة ٢ : ١٣٠ وبغية الوعاة ٣٣٦ ومدارس نحوية لشوقي ضيف ١٧٢ ومدرسة الكوفة للدكتور مهدى المخزومي ٩٧.

أثر ذلك في مناظرته لسيبويه حين قدم بغداد. وقد أرست هذه المناظرة أصلا من أصول المدرسة الكوفية، وهو الأخذ باللغات الشاذة المخالفة للأقيسة البصرية من جهة وللشائع المتداول على أفواه العرب من جهة ثانية. ومن المؤكد أن هذه المناظرة أقنعت الكسائي بأن ما بيده من النحو وقواعده قليل وأنه ينبغي أن يتزود من نحاة البصرة وعلمهم الغزير، وتصادف أن توفى سيبويه عقب المناظرة، غير أنه علم أن الأخفش الأوسط (سعيد بن مسعدة) حمل كتابه النفيس عنه، وأنه يمليه على الطلاب ويدرسه لهم وأنه إليه انتهى علم البصرة بالنحو، ولم تعيه الأسباب في الاتصال به ورواية الكتاب عنه. ووجده يكثر من الخلاف على صاحبه وعلى الخليل مستضيئا بمعرفته الواسعة بلغات العرب، فاستقر في نفسه أن يتابعه في هذا الاتجاه، وبذلك أعدّه الأخفش إعدادا حسنا لكي ينمي فيه رغبته الملحة في مخالفة النحو البصري مخالفة تقوم على الاتساع في الرواية والقياس، بل لقد نفذ إلى تأسيس مدرسة نحوية جديدة، تنافس المدرسة البصرية القديمة الراسخة، وقد أعانه في ذلك تلاميذه، وبخاصة الفراء.

والأخفش بعمله هذا بعث إتجاها قديما كان في صدر الكسائي منذ قعوده للقراءة والتعليم في الكوفة، ولكننا نقطع بأن الأخفش هو الذي دفعه دفعا في هذا الاتجاه، ولم يدفعه وحده بل دفع معه تلاميذه ومن خلفوهم على المدرسة الكوفية. وقد نشط الكسائي في تأليف النحو فألّف كتابين هما (مختصر النحو) و (كتاب الحدود في النحو) وألّف رسالة في أغلاط العامة سماّها (ما تلحن فيه العوام) وهي مطبوعة ضمن مجموعة من الرسائل كتبت في القرن الثاني عشر للهجرة صححها عبدالعزيز الميمني وقدمها للطبع مع رسالتين أخريين إحداهما (مقالة في كلاّ) وماجاء منها فى كتاب الله لابن فارس، والثانية رسالة الشيخ ابن عربي إلى الإمام الفخر الرازي، وعنونت المجموعة بـ (ثلاث رسائل)، وطبعت في المطبعة السلفية بمصر عام ١٣٤٤ هـ. وهي رسالة في اللغة لا في النحو، تتضمن جملة الكلمات التي ينطق بها العامة على غير وجهها الصحيح. ومازال يوالي هذا النشاط العلمي - في تأليف كتب تتصل بالقرآن الكريم وقراءاته ومعانيه والنحو واللغة - حتى خرج مع الرشيد في مسيرة إلى خراسان سنة ١٨٩ هـ واعتل علّة شديدة لم يلبث أن توفي منها بقرية رنبويه بالقرب من الري، وتوفى معه الفقيه المشهور (محمد بن الحسن الشيباني) فحزن الرشيد عليهما حزنا شديدا وقال: (دفنّا الفقه والنحو بالري).

فالكسائي إذن تخرج في مدرستين، لكل منهما منهج خاص يختلف عن الآخر اختلافا كبيرا، فمنهج مدرسة القراءة، عماده الرواية والسند الصحيح، والاسناد هو الأصل الأعظم عند القراء، ولا تجوز القراءة بالقياس المطلق قطعا، وكل قراءة لم تستند إلى الرواية فهي مردودة، وإن وافقت مقاييس النحاة وقوانينهم، وقد سمعنا الشعبي يقول: (القراءة سنّة فاقرأوا كما قرأ أولوكم) .

وكانت القراءة، ولا تزال، قائمة على التلقي والتلقين، رواها الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم، ورواها التابعون عن الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم، ورواها تابعو التابعين عنهم عن الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم. ولم يكن عماد الرواية القراءات فحسب، بل كانت عماد المعارف الاسلامية كلها في القرن الأول، كان الفقيه يعتمد عليها في فقهه، والمفسر يعول عليها في تفسيره، والمؤرخ ليس له وسيلة غيرها يصل بها إلى أخباره، وهكذا سائر الدارسين، لا يجدون ما يعتمدون عليه في دراساتهم وتخصصهم غير سبيل النقل والرواية.

في هذه البيئة القرآنية نشأ الكسائي، وقضي شطرا من حياته يسمع من هذا، ويعرض على ذاك وروي قراءات كثيرة كان يتخيرّ من مجموعها قراءة عرف بها من بعد.

وأما منهج مدرسة النحو فعماده الرواية أيضا والقياس عليها بما يفيد في تأييد أصوله وتثبيت قواعده. ولقد تعلم الكسائي العربية على كبر، ودرس النحو على شيوخ القياس في البصرة، واتصل بكثير من المنتسبين إلى مدرسته. وقد ظهر أثر ذلك في هذه المدرسة.

تأسيسه للمدرسة الكوفية ومنهجه الجديد:

لاريب أن الفضل يعود إلى الكسائي في تأسيس مدرسة الكوفة، فهو الذي وضع رسومها ووطأ منهجها، وفيه يقول أبو الطيب: (كان عالم أهل الكوفة وإمامهم، وإليه

ينتهون بعلمهم، وعليه يعولون في روايتهم) . ويقول أبو حاتم: (وهو على ذلك أعلم الكوفيين بالعربية والقرآن، وهو قدوتهم وإليه يرجعون)، وأما قول أبي حاتم عنه (إن علمه ليس منظما وأنه يفتقر إلى الحجج والعلل) فقد يكون صحيحا إذا قسناه إلى سيبويه، ولكن من المؤكد أنه تلقى عنه وعن الخليل وعيسى بن عمر معرفة الأقيسة والعلل، بل لقد كان يؤمن بأن النحو إنما هو ضروب من القياس وما يطوي فيه من علل وحجج تشده وتقيم أوده، حتى ليقول:

إنما النحو قياس يتّبع ... وبه في كل أمر ينتفع

ولذا نجده توسع في القياس فلم يقف عند حد المستعمل الشائع على الألسنة ولا عند أعراب البدوي بل مدّه ليشمل ماينطق به العرب المتحضرون ممن يمكن أن يكون قد دخل اللحن على ألسنتهم في رأي البصريين، وأهم من ذلك أنه مدّ النحو ليشمل الشاذ النادر من تلك اللغات مما لم يكن سيبويه والخليل يعبأن به ولا يريان له قدرا لأنهما كانا يريدان وضع قوانين النحو فى صورة حازمة صارمة بحيث لا يعتريها الاضطراب والخلل، وبحيث تضطرد ولا تتأرجح بين موازين مختلفة. غير أن الكسائي فيما يبدو رأي أن يعاد النظر في هذا التأصيل العام لقواعد النحو وأن يفسح فيها للقراءات واللغات الشاذة، وبذلك خرج إلى صورة جديدة للنحو لا تتفق والمناهج الدقيقة في وضع العلوم التي تقتضي في قواعدها الاضطراد والتعميم والشمول، ولكنها على كل حال فتحت الأبواب للاحتفاظ بالحروف الشاذة في قراءات الذكر الحكيم وبشواذ اللغات واللهجات وصونها وحمايتها من الضياع. وبذلك تعاون الطرفان المتعارضان على إثباتها مع أختلاف الغاية . وقد تعرض الكسائي لبعض حروف القراءات وخرّجها على وجوه جديدة مختطا لنفسه ولمدرسته منهجا يخالف النهج البصري، ويتضح ذلك جليا من عرضنا لبعض النماذج التى توضح موقفه:

١ ـ منها قوله تعالى" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ " (سورة المائدة) [7] .

(٧) سورة المائدة ٦٩ .

فقد لاحظ إنَّ (الصابئون عطفت بالرفع على اسم إنّ المنصوب قبل تمام الخبر (مَـنْ آمَـنَ باللّـهِ والْيَـومِ الآخِـرِ) فوضع قاعدة عامة: (أنه يجوز العـطف على موضع إن واسمها، وموضعهما الابتداء وهو مرفوع قبل مجيء الخبر) فيقـال إنَّ مُحمَّـداً وَعـلِـيٌّ مُسَـافِرَان. ومنع البصريون ذلك، وأجابوا عن الآية بجوابين:

أ ـ أحدهما أن خبر إن محذوف تقديره مأجورون أو آمنون أو فرحون، والصابئون مبتدأ وما بعده خبر، واستشهدوا على ذلك بقول بعض الشعراء:

خليلـيَّ هَلْ طِبُّ فإنِّي وأنْتُمـا   وإنْ لَمْ تَبوُحَا بالْهَوى دَنِفَـانِ

ب ـ الثاني أن الخبر المذكور في الآية خبر إنّ، وأما (الصابئون) فخبرها محذوف تقديره كذلك، واستشهدوا لهذا الجواب بقول ضابيء بن الحارث البرجمي:

مَن يَكُ أمْسى في المَدِيْنَةِ رَحْلُـهُ   فَإنِّي وقيّار بِهَا لَغَرِيـبُ

وخالفه الفراء في ذلك وحصر هذه القاعدة فيما لم يظهر عليه عمل إن وهو المبني في الآية والبيت(٨)

٢ ـ ومن ذلك الآية الكريمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾(٩)(سورة الأعراف). في قراءة سعيد بن جبير بنصب (عبادا) مما جعل الكسائي يضع قاعدة عامة وهي [أن إنْ النافية إذا دخلت على الجملة الأسمية عملت عمل (ليس) فرفعت الأسم ونصبت الخبر]. وهي في رأي سيبويه لا تعمل بل تهمل دائما . وكأن قراءة سعيد بن جبير في رأيه شاذة فذّة لا يصح أن تتخذ منها قاعدة. ولعل من الطريف أن نعرف أن الفرّاء كان يتابع سيبويه في رأيه، بينما كان يتابع المبرّد البصري الكسائي فيما ارتآه من عملها(١٠).

(٨) الانصاف المسألة ٢٣ والمغني ٥٢٧ والهمع ٢: ١٤٤ وأسرار العربية ١٥٢.

(٩) سورة الأعراف الآية ١٩٤ .

(١٠) ابن يعيش ٨ : ١١٣ والرضي ١ : ٢٤٩ والمغنى ١٩ والهمع ١ : ١٢٤ .

٣ - ومن ذلك الآية « وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴿١٨﴾ »(١١) (سورة الكهف).

فقد لاحظ أن اسم الفاعل (باسط) مع أنه بمعنى الماضي في الآية، لأنه يحكي قصة أهل الكهف، عمل النصب في ذراعيه، فوضع قاعدة عامة (هي أنه يعمل النصب بمعنى الماضي وبمعنى الحال والاستقبال) بينما كان البصريون يمعنون عمله النصب فيما بعده على المفعولية وهو بمعنى الماضي، وتأولوا (باسط) على حكاية الحال الماضية بدليل قوله (ونقلّبهم) غير أن الكسائي تمسك بالآية واتخذ منها قاعدة كلية مجوزا مثل: (زَيْدٌ مُعْطٍ عَمْراً أَمْسِ دِرْهَماً) . وتابعه هشام الضرير بينما ظل الفراء مع جمهور البصريين لا يجيز أعمال اسم الفاعل في المفعول به إذا كان بمعنى الماضي(١٢) .

٤ - ومن ذلك الآية الكريمة « قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴿٣١﴾ » (سورة ابراهيم).

فقد رأي المضارع فيها محذوف النون، فقال إنها حذفت على تقدير لام الأمر، واتخذ من ذلك قاعدة عامة هي (حذف لام الأمر من المضارع بشرط تقدم (قل عليه) كما في الآية) . بينما كان البصريون يرون أن الفعل المضارع مجزوم في جواب الأمر مثله في نحو (ائْتِنِي أُكْرِمْكَ(١٣)).

(١١) سورة الكهف ١٨

(١٢) المغني ٧٧٠ والهمع ٢ : ٩٥.

(١٣) المغني ٢٨٤ والكتاب ١ : ٤٥٢ وسورة ابراهيم ٣١.

الأقوال والأشعار:

وعلى نحو ما كان يتخذ من بعض الحروف في القراءات قواعد يخالف فيها سيبويه والخليل كان يصنع ذلك تلقاء الاقوال والأشعار الخارجة على مقاييسمها بل لقد وجد فيها مادة أوسع وأغرز.

١ ـ أن لا النافية للجنس يصح أن يليها العلم فيقال (لاَزْيــدَ فِــي الــدَّارِ)(١٤).

٢ ـ جواز تقديم المستثنى في أول الكلام سواء أكان موجبا أم منفيا. (١٥)

٣ ـ ذهب سيبويه وجمهور الكوفيين إلى أن (خلا) إذا تقدمتها (ما) المصدرية تعينّ نصب المستثنى بعدها. وجوّز الكسائي فيه الجر على أن تكون (ما) زائدة فتقول (قَامَ الْـقَـوْمُ مَـا خَـلاَ مُحَمَّداً وَمَـا خَـلاَ مُحَمَّدٍ)(١٦).

٤ ـ أنه يجوز تقديم المستثنى على المعمول للفعل مرفوعا كان أو منصوبا أو مجرورا مخالفا بذلك جمهور البصريين(١٧).

٥ ـ وربما كان أغرب ما ذهب إليه الكسائي من أحكام في باب الاستثناء أنه جوَز في مثل (مَـاقَـامَ إلا مُحَمَّدٌ) نصب محمد على الاستثناء. وقد اندفع في هذا الحكم تمشيا مع قاعدته (أنه قد يحذف الفاعل مع الفعل) وكأنه لم يلاحظ في المثال السابق. ما لاحظه البصريون وجمهور الكوفيين من أن الفاعل مذكور بعد إلاّ وأن الاستثناء مفرغ. وربما كان أشد في الغرابة أنه أعرب لفظة (محمد) في حالة الرفع بدلا من الفاعل المحذوف(١٨).

---

(١٤) الهمع : ١: ١٤٥

(١٥) الانصاف المسألة ٣٦ والهمع ١ : ٢٢٦.

(١٦) المغني ١٤٢ والهمع ١ : ٢٣٣

(١٧) الهمع = ١ : ٢٣٠

(١٨) الهمع ١ : ٢٢٣.

٦ - جوّز الكسائي تقدم التمييز على الفعل ومرفوعه مثل (نَفْساً طَابَ مُحَمَّدُ) وتبعه في ذلك المازني والمبرّد ومنعه سيبويه وجمهور االبصريين، وأجازوا توسطه بين الفعل ومرفوعه مثل مثل (طَابَ نَفْساً مُحَمَّدٌ) (١٩) .

٧ - كان سيبويه يذهب هو وجمهور البصريين إلى أن (حيث) تلزم الإضافة إلى جملة اسمية أو فعلية وأنه لا يجوز إضافتها إلى المفرد، وذهب الكسائي إلى جواز ذلك، بل جعله قياسا لوروده في بعض الشعر، والبصريون يجعلون ذلك من النادر الذي لا يصح أن يتخذ منه القياس والأحكام النحوية الكليه العامه(٢٠)

٨ - له في نواصب المضارع آراء كثيرة لا تسندها الشواعد ولا القياس:

أ - كان سيبويه لا يجوّز الفصل بين (لَنْ) والفعل المضارع المنصوب بعدها، وتابعه في ذلك البصريون وهشام، وخالفه الكسائي، فجوز الفصل بينهما بالقسم نحو (لَنْ واللَّهِ أُكْرِمَ زَيْداً) وبمعمول الفعل نحو (لَنْ الْكِتَابَ أَقْرأَ) وأحسن الفرّاء ما في المثال الثاني من النبوّ فلم يوافقه إلا على الفصل بالقسم، ثم عاد فجوّز الفصل (بِظَنَّ) نحو (لَنْ أَظُنُّ أَزُورَكَ) وكذا الفصل بالشرط مثل (لَنْ - إنْ تَزُرْنِي - أَزُورَكَ) وهما صيغتان نابيتان وليس هناك ما يؤيدهما من الشواهد(٢١) .

ب - كان البصريون وهشام ومن وافقه من الكوفيين لا يجيزون الفصل بين كي ومعمولها إلا (بما أو لا) الزائدتين مثل «كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً ۝»(٢٢)(سورة الحشر).
وقول أبي ذؤيب الهذلي:
عتُرِيدِينَ كَيْمَا تَجْمَعِينِي وخَالِداً   وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيحَكِ فِي غِمْدِ

(١٩) الانصاف المسألة ٢٠ والهمع ١ : ٢٥٢ وابن يعيش ٢ : ٧٣.
(٢٠) المغني ١٤١ والهمع ١ : ٣١٢
(٢١) الهمع ٢ : ٤ .
(٢٢) سورة الحشر آية ٧ .

ومثال الفصل بهما معا قول الشاعر:

أردتُ لكيما لا تَرانِي عَشيرتِـــــي ومن ذَا الذي يُعْطَي الكمالَ فَيَكْمُلُ

وجوّز الكسائي الفصل بينها وبين الفعل مطلقا(٢٣) كما أجاز تقديم معمول صلتها عليها نحو: جَاءَ زَيْـدٌ العِلْمَ كَيْ يَتعَلَّمَ.

جـ - جمهور البصريين يجيز الفصل بين (إذَنْ) ومعمولها بلا النافية وبالقسم لورود ذلك في الاختيار وفي الشعر كقول الشاعر:

إذَن وَاللَّهِ نَرْمِيَهُـــمْ بِحَـــــربٍ تُشِيبَ الطِّفْلَ مِنْ قَبْلِ الْمَشِيـــبِ

وتوسع الكسائي وتبعه - هشام الضرير - فجوّز الفصل بمعمول الفعل مطلقا نحو (إذنْ صَاحِبَكَ أكْرِمَ). والأرجح عند الكسائي النصب وعند هشام الرفع(٢٤). وكان سيبويه والبصريون يشترطون لنصبها المضارع أن تكون في صدر العبارة، وسمع الكسائي بعد الرّجاز يقول:

لاتَتْرُكَنِّي فيهِمُ شَطِيــــــــراً إنِّـــيإذنْ أهْلَكَ أوْ أطِيـــــــــرَا

فذهب إلى الغاء هذا الشرط بعد (إنّ) وقاس عليها (كان) تقول (كَانَ عَبْدُاللَّهِ إذنْ يُكرِمك) وتوقف تلميذه الفراء فوافقه في (إنّ) وخالفه في (كان) رافضا ما ارتآه أستاذه من هذا القياس. والبصريون يتأولون البيت على أن خبر إنّ محذوف تقديره (إنِّي لا أقْدِرُ عَلىَ ذلِكَ - واستأنف - إذنْ أهْلَكَ أو أطِيرَا)(٢٥) .

٩ - توسعه في القياس جعله يجيز أن تكون صلة الموصول جملة طلبية محتجا بقول الفرزدق:

وَإنِّي لَرَاجٍ نَظْرَة قِبلَ الَّتِــــــي لَعَلِّيَ وَإنْ شَطَتْ نَوَاهَا أزُورهـــا

والصلة في البيت - إن صحت - جملة إنشائية لا طلبية ، وقد تأول البصريون

---

(٢٣) الهمع ١ : ٨٨ ، ٢ : ٦

(٢٤) المغني ٣١ ، ٣٢

(٢٥) معاني القرآن ١ : ٢٧٤ والهمع ١ : ٧ والمغني ٣١ ، ٣٢ ، والخزانة ٣ : ٥٧٤ .

البيت على إضمار الصلة (الَّتِي أَقُولُ لعَلِيٍّ) أو على أن الصلة هي جملة (أزورها) وخبر لعل محذوف تقديره (لَعَلِيِّ أَفْعَلُ ذَلِكَ).

وانما منع البصريون أن تكون جملة الصلة إنشائية لأنها معرفة للموصول فلابد من تقدمه عليها، وأن تكون معهودة مما يستلزم خبرتيها وما خالف ذلك يؤول، ولأن هذا الاحتراز سليم توقف هشام ولم يرتض ما ارتآه أستاذه الكسائي في نحو (الَّذي كَلِّمْهُ، أَوْلاَ تخَاطِبْهُ محمدٌّ) ولكنه قاس على البيت فأجاز تصدرها بلعل أو ليت أو عسى(٢٦).

١٠ ـ إنّه يجيز الفصل بين فعل الشرط وأداته بمعموله مثل (مَنْ زيداً يُكْرِمْ أكْرِمْ)، والفصل بعطف وتوكيد ـ ومنع الفراء ذلك لعدم وروده في السماع(٢٧). وكان يجوز تقديم معمول فعل الشرط والجواب على الأداة مثل (خَيرْاً إنْ تَفْعَلْ تُكْرَمْ) ـ و (خَيرْاً إنْ أَتَيْتَنِي تُصبْ)، ومنع ذلك أيضا الفراء إذ لا يؤيده شيء من السماع عن العرب(٢٨).

١١ ـ جوّز في المصدر الواقع مبتدأ وخبره حال سدّت مسدّه مثل (قَراءَتِي الكتابَ نَافِعةً) بنصب نافعة وأن ينعت فيقال مثلا (قَرَاءَتِي الْكتَابَ الدَّقِيقَةُ نَافِعَةً) ومنع ذلك الجمهور لأنه لم يرد فيه سماع(٢٩).

١٢ ـ البصريون يوجبون كسر (إنّ) حين تقع جوابا لقسم مثل (واللّهِ إنَّ محمداً قَائِمٌ) لكثرة ذلك في السماع عن العرب، وخالفهم الكسائي، فجوّز الكسر والفتح واختار فتحها مع ندرته في السماع(٣٠). وقيل يجب الفتح، وهذا رأي الفراء.

١٣ ـ جوّز العطف بالرفع على المفعول الأول لظن إذا كان المفعول الثاني فعلا فيقال: (أظُنُّ عبدَاللّه وزَيْدٌ قَامَا أو يَقُومانِ) ولم يسند ذلك بأي سماع أو شاهد عن العرب ولعل ذلك ما جعل الفراء تلميذه يقف في صفوف البصريين منكرا هذا الحكم(٣١).

---

(٢٦) الهمع: ١ : ٨٥، ٨٦ والمغنى ٦٤٧

(٢٧) الهمع ٢ : ٥٩

(٢٨) الهمع ٢ : ٦١، والرضى ١ : ١٥٠، ٢ : ٢٣٦.

(٢٩) الهمع ١ : ١٠٧

(٣٠) الهمع ١ : ١٣٧ .

(٣١) الهمع ٢ : ١٤٥ .

١٤ ـ يجيز في الاختيار تقديم الحال على صاحبها مثل (زَيدٌ شجَاعاً مثلك وزيدٌ طالعةً الشَّمْسُ) ومذهب البصريين المنع لأنه لا يتفق ومنطق التعبير وسياقه(٣٢).

١٥ ـ ذهب الكسائي والفراء إلى حكم لايسنده أي سماع ولا أي شاهد لما ذهبا إليه من بناء فعلى (كَانَ وَجَعلَ) للمجهول وإقامة الخبر المفرد نحو (كِينَ قَائِمٌ) في (كَانَ زيدٌ قَائِماً)، وجواز إقامة الفعل في كان زيد يقوم أو قام فيقال (كِينَ يُقَامُ أو قِيمَ) ولا يقدر في الفعل شيء. ويقال (جَعَلَ يَفْعَلُ) من غير تقدير في الفعل على رأي الفراء وبتقدير ضمير المجهول في الفعل على رأي الكسائي، والبصريون يمنعون ذلك مطلقا(٣٣) .

١٦ ـ إعراب الأسماء الستة (أبُوكَ وأخواتها) يرى قطرب والزيادي والزجاجي من البصريين وهشام من الكوفيين أن الأحرف هي علامة الأعراب، وكان سيبويه وجمهور البصريين يرون أنها معربة بحركات مقدرة في الحروف أي في (الواو رفعا والألف نصبا والياء جرا). وذهب الأخفش إلى أنها معربة بحركات مقدرة على ما قبل تلك الحروف بينما ذهب الكسائي وتبعه الفراء إلى أنها معربة من مكانين بالحروف والحركات السابقة لها معا ـ غير عابئين بأن علامات الأعراب إما أن تكون بالحركات أو بالحروف وأنه كان ينبغي لهما اختيار إحدي العلامتين(٣٤) .

١٧ ـ في باب الاشتغال مثل الكتاب قَرَأْتُهُ)، سيبويه والبصريون يجعلون الكتاب وما يماثله مفعولا به لفعل محذوف يفسره المذكور، وذهب الكسائي إلى أنه مفعول لفعل التالي والضمير المتصل به ملغي. وعورض بالفعل اللازم نحو (الكِتَابَ نَظَرْتُ فِيهِ) فلا يصح تعديه للمفعول السابق. وكأنما أحس الفراء بضعف ماذهب إليه أستاذه من إلغاء الضمير فجعل الفعل عاملا في الاسم السابق وضميره المتصل به معا. وردّ أيضا ذلك بتعدي الفعل اللازم، وأن الفعل المتعدي لواحد يصبح متعديا لمفعولين مثل (الكِتَابَ قَرَأْتُهُ) وهذا نقض للقواعد المقررة في لزوم الأفعال وتعديها(٣٥).

---

(٣٢) الهمع ١ : ٢٤٢ .

(٣٣) الرضي على الكافية ١ : ٧٤. والهمع ١ : ١٦٤

(٣٤) الهمع ١ : ٣٨.

(٣٥) الهمع ٢ : ١١٤ .

١٨ ـ (ضمير الفصل) عند البصريون ويسميه الكوفيون (عمادا) لكونه حافظا لما بعده، حتى لا يسقط عن الخبرية، كالعماد في البيت الحافظ للسقف من السقوط(٣٦). وقال المتأخرون من البصريين: إنما سمي فصلا لأنه فصل به بين كون ما بعده نعتا، وكونه خبرا، لأنك إذا قلت (زَيدٌ القائِمُ) جاز أن يتوهم السامع كون القائم صفة، فينتظر الخبر، فجئت بالفصل ليتعين كونه خبرا لا صفة(٣٧). وقال الخليل (كأنه ذكر هو) ليستدل المحدث على أن ما بعد الاسم مما يخرجه مما وجب عليه، وأن ما بعد الاسم ليس منه(٣٨). وقد كان الفراء يقول في تفسير قوله تعالى "وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ"(٣٩)(سورة الأنفال).

في الحق النصب والرفع إن جعلت هو اسما رفعت الحق بهو، وإن جعلتها عمادا بمنزلة الصلة نصبت الحق وكذلك فافعل في أخوات كان وأظن(٤٠)، وكان يقول: أنشد الكسائي:

ليتَ الشَّبَابَ هُوَ الرجِيعَ على الفتَى والشيبُ كَانَ هُوَ البدِيءُ الأولُ

فرفع في (كان) ونصب في (ليت). وقال مرة أخرى في قوله تعالى: "وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ"(٤١)(سورة الزخرف).

إن جعلت (هم) عمادا نصبت الظالمين ومن جعلها اسما رفع، وهي في قراء عبدالله (الظالمون).

وحكى سيبويه عن رؤبة أنه كان يقول (أَظُنُّ زَيداً هُوَ خَيرٌ مِنْكَ) وحكى أن كثيرا من العرب كانوا يقولون: (وَمَا ظَلَمْنَاهُم ولَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمُونَ(٤٢)).

فالبصريون يرون أن الضمير لا محل له من الاعراب، وذهب الكسائي إلى أن محلّه محل ما بعده، وذهب الفراء إلى أن محله محل ما قبله فيكون محله رفعا عندهما في نحو (زَيدٌ هُوَ القَائِمُ) ونصب عندهما في نحو (ظَنَنْتُ زَيداً هُوَ القَائِمَ) وفي نحو (كَانَ زَيدٌ

---

(٣٦) شرح الرضي على الكافية ٢ : ٢٤ .

(٣٨) الكتاب ١/٣٩٤ .

(٣٩) الأنفال : ٣٢ .

(٤٠) معاني القرآن للفراء ١ : ٤٠٩، ٤١٠، ٣: ٣٧ طبعة دار الكتب المصرية.

(٤١)،(٤٢) الكتاب لسيبويه ١ : ٣٩٥، ومعاني القرآن للفراء ٣:٣٧. وسورة الزخرف الآية ٧٦.

هُوَ القَائِمَ) محله نصب عند الكسائي ونصب عند الفراء، وفي (إنَّ زَيْداً هُوَ القائِمُ) بالعكس. وكل ذلك أعفانا منه البصريون لأنه لا يترتب عليه شيء في النطق فضلا عن البعد في تقدير المحل المزعوم(٤٣).

(٤٣) الهمع ١ : ٦٨.

٢ ـ الفــــرّاء(٤٤)

هو يحيى بن زياد بن عبدالله، من أصل فارسي من الديلم، ولد بالكوفـة سنـة ١٤٤ هـ ونشأ بها، وأخذ يكبّ منذ نشأته على حلقات المحدثين والقـراء، واختلف إلى حلقات الفقهاء ورواة الشعر والأخبار والأيام. وكان ميله شديدا إلى إتقان اللغة والعناية بالقرآن الكريم وقراءاته وتفسيره، وعندما عاد إلى مسقط رأسه ـ بعد تجوال كبير ورحلات علمية استوعب فيها كثيرا من العلوم ـ كان يحمل من ذلك كله أزوادا كثيرة.

شيوخ الفـرّاء

تتلمذ الفراء على شيوخ كثرين منهم ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ قيس بن الربيع (ت ١٦٥ هـ) ومندل بن علي (ت ١٦٧ ه) وأخوه حبّان بن علي، وأبو الأحوص سلاّم بن سليم (ت ١٧١ ه) وأبو بكر ابن عيّاش (ت ١٩٢) وأخوه الحسين بن عياش، وسفيان بن عيينة (ت ١٩٨ ه) وحازم بن الحسين البصري، ومحمد بن حفص الحنفي، وأبو جعفر الرؤاسي (ت ١٩٠ هـ) وعلى بن حمـزة الكسائـي (ت ١٨٩ هـ) ويونس بن حبيب البصري (ت ١٨٢ ه) ومنهم محمد بن الفضل المروزي، ومحمد بن مروان وعلي بن غراب، ويحيى بن سلمة بن كهيل، واسماعيل بن جعفر المديني، وأبو ليلى السجستاني، وعبدالله بن المبارك الذي وصفه بالثقة، والقاضي الكوفي العظيم القاسم بن معن بن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود ، وقال ياقوت الحموي: (والفراء كثير الرواية) وعن الراوية المشهور المفضّل الضبّي وكذلك أخذ عن أعراب وثق بهم مثل أبي الجرّاح وأبي زناد الكلابي (وقد عدّهما ابن النديم في جملة الفصحاء) . وقد مضى في اثر أستاذه

(٤٤) راجع ترجمة : الزبيدى ١٤٣ وأبوالطيب اللغوى ٨٦ والفهرست ١٠٤ ومقدمة تهذيب اللغة للأزهرى ونزهة الألبا ٩٨ وتاريخ بغداد ١٤ : ١٤٩ وابن خلكان (يحيى) والأنساب للسمعاني، الورقة ٤٢٠ ومعجم الأدباء ٢٠ : ٩ وطبقات الحفاظ ١:٣٤١ وطبقات القراء ٢:٣٧١ وتهذيب التهذيب ١١ : ٢١٢ وشذرات الذهب ٢ : ١٩ ومرآة الجنان ٢:٣٨ بغية الوعاة ٤١١ ومدارس نحوية للدكتور شوقي ضيف ١٩٢ ومدرسة الكوفة لمهدى المخزومي ١١٩.

الكسائي يكثر من الرواية عن الأعراب الذين نزلوا بغداد غير ملتفت لطعن البصر يين فيه، وفي أمثالهم ممن اختلطوا بأهل الحضر. وتدور في كتابه معاني القرآن روايات كثيرة عن جماعة منهم وفي مقدمتهم أبو دثار الفقعسي وأبو ثروان العقلي وأبو الجراح العقيلي حيث وجد عندهم مادة وفيرة من الشعر واللغة.

عقلية الفرّاء

تمتع الفراء بذاكرة لاقطة وحافظة أمينة، وكان ذا عقل جبّار وموهبة مبتكرة، شهد له بذلك القدامى والمحدثون. و يتجلىّ أثر تلك العقلية الجبارة في تأسيس مذهبه الجديد في النحو والتفسير، كما يتمثل باستقلاله الفكري في تفسير الظواهر اللغو ية تفسيرا يسترشد فيه بروح العربية مخالفا بذلك ما درج عليه سيبو يه والخليل من البصر يين الذين تلقى عنهم الكوفيون نحوهم، كما يتشمل في اختيار مسلك وسط بين أهل السنة والاعتزال، ظهر أثره واضحا على يدي أبو الحسن الأشعري فيما بعد، و يتمثل أيضا في وضع الأصول النحو ية سابقا بذلك ابن السرّاج بنحو قرن من الزمان حتى ندبه الخليفة المأمون (المعتزل المتشدد) لوضع أصول النحو(٤٥) . وقد لمس الكسائي فيه هذا العقل فقال موازنا بينه وبين الأحمر (الفرّاء أحسن عقلا وأبعد فكرا، وأعلم بما يخرج من رأسه)(٤٦). وليس ذلك كثيرا على من أملى معظم آثارة عن ظاهر الغيب، حتى عرف بشيخ الإملاء فهو يعتمد على الذاكرة الواعية والعقل الراجح طالبا وأستاذا على السواء. وقال المرحوم أحمد أمين عن الفراء (جمع إلى علم الكوفيين علم البصر يين، فأخذ عن الكسائي الكوفي، كما أخذ عن يونس البصري ثم هو كبير العقل بجانب سعة الإطلاع)(٤٧).

---

(٤٥) معجم الأدباء ١٢/٢٠ ط دار المأمون

(٤٦) تاريخ بغداد ١٤: ١٥٣ طبعة السعادة.

(٤٧) ضحى الاسلام ٢ : ٣٠٧ الطبعة الثانية .

الفراء سلفيّ أكثر منه معتزليّ:

كان الفرّاء ينزع منازع السلف بوجه عام بالرغم من كونه ذا صلة بالمعتزلة ـ فهو ينكر على أبي عبيدة تفسير القرآن بالرأي، ويقول : (لو حمل إليّ أبو عبيدة لضربته عشرين في كتاب المجاز) ثم هو يعتمد على الرواية اعتمادا كبيرا في تفسير المعاني، ويعني بالاسناد عناية ملحوظة، وقد اعتنق مبدأ الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم ودافع عنه دفاعا حارا ضد منكريه من المعتزلة وعلى رأسهم (النظام) كما كان يردّ على بعض علماء الشعر ورواة الأخبار التاريخية عن عرب البادية الذين لا يريدون أن يلتمسوا اعجاز القرآن في قوالبه اللغوية، ومن هنا كان الإعجاز اللغوي مظهرا قويا من مظاهر النزعة السلفية عند الفراء وربما كان هذا المبدأ من أولياته. ولقد سعى الفراء إلى حلقات المعتزلة التى كانت تهوى القلوب عند الشباب والمثقفين والأدباء في البصرة، وتلقى مبادئ الاعتزال وظلّ عليها فترة جعلت مترجموت يقولون: إنه كان متكلما يميل إلى الإعتزال، يؤكد ذلك ردوده على الجبرية في كتابه (معاني القرآن)، ولعل صلته بالمعتزلة ودراسته للاعتزال هى التي دفعته إلى قراءة كتب الفلسفة والطب والنجوم، شأنه في ذلك شأن المعتزلة الذين كانوا يحرصون على قراءة هذه الكتب، وكأنه جزء منهم لمذهبهم، يقول الجاحظ (لايكون المتكلم جامعا لاقطار الكلام متمكنة في الصناعة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة، والعالم هو الذي يجمعها[48].

وهكذا كان موقف الفراء من المعتزلة واضحا وصريحا، فهو يخالفهم في كثير من مذاهبه ولا يوافقهم إلا فيما يتفق مع دينه القويم، مثل القول بمبدأ العدل ونفى الشبيه عن الله تعالى. ومبدأ العدل نشأ في وقت مبكر في صدر الاسلام مع نزول القرآن الكريم.

وبالرغم مما عرف عن الفراء من ملازمته من ملازمته لبعض المعتزلة، واتصاله بآرائهم وتأثره بمنهجهم ومصاحبته للمأمون الذي عرف بميله للاعتزال، وتقريبه المعتزلة بل

(٤٨) طبقات الحفاظ ١ : ٣٤١ .

تعصبه لهم فإن منهجه في دراسة اللغة والنحو هو المنهج الذي رسم حدوده أستاذه على بن حمزة الكسائي. ولم يخالف المعتزلة في منهجه الدراسي فحسب بل خالفهم في بعض ما تناولوه بالبحث من مشكلات في العقائد، امتحنوا بها الناس أيام عزّتهم وقوة سلطانهم كالقول بخلق القرآن، والقول في تفسير إعجازه وغيرها. فلقد كان الفراء يشايع أهل السنة في القول بإعجازه اللغوي(٤٩) ، وأن إعجازه يقوم على أنه نزل بأفصح اللغات على الاطلاق. وكان الفراء يميل إلى القول بالاعجاز اللغوي وهو ما كان يردده من أن لغة القرآن أفصح اللغات وأن أسلوبه أصفى الأساليب لأنه نزل بلغة قريش التي هي أنقى اللغات وأصفاها، لأنها خلت من (مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ، من ذلك الكشكشة، وهي لربيعة ومضر، يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شينا فيقولون: رَأَيْتُكِش، وبِكِش وَعَلَيْكِش(٥٠) ....الخ)ـ وكان يردّ على بعض علماء الشعر ورواة الأخبار التاريخية، من عرب البادية الذين لا يريدون أن يلتمسوا إعجاز القرآن في قوالبه اللغوية بل يرون كمال الفصاحة في لغة عرب البادية(٥١).

ولا يعني هذا أن الفلسفة الكلامية لم تترك أثرا في تفكير الفراء ولكن العكس، فالراصد لأقواله يحس بجلاء ما في آرائه النحوية وتفسيراته لوجوه الإعراب من أثر التفكير الفلسفي، فلا يزال يقلّب المسألة على وجوهها المختلفة ويعلل كل وجه منها، شأن العالم الذي يفترض في المسألة الواحدة فروضا متعددة، ويجري تجاربه على كل فرد منها على حدة، ليصل إلى الغرض الذي قصد إليه.

وهذا يوضح أن الفراء عني منذ نشأته في الكوفة ثم البصرة بالوقوف على ثقافات عصره الدينية والعربية والكلامية والفلسفية والعلمية، ويشهد بذلك معاصروه، فيقول ثمامة بن أشرس وقد جلس إليه بأخرة من حياته: (جلست إليه ففاتشته عن اللغة فوجدته بحرا، وفاتشته عن النحو فوجدته نسيج وحده، وعن الفقه فوجدته رجلا فقيها عارفا باختلاف القوم، وفي النجوم ماهرا، وبالطب خبيرا، وبأيام العرب وأشعارها حاذقا، فقلت من تكون؟ وما أظنك إلا الفراء. فقال أنا هو. وكان يوصف بالتفلسف في تصانيفه، إذ

(٤٩) العربية ليوهان فك تعريب الدكتور النجار ص ٥ .

(٥٠) المزهر ١ : ١٣٢ .

(٥١) العربية ليوهان فك تعريب الدكتور النجار ص ٤ ، ٥

كان يستعمل فيها ألفاظ الفلاسفة) (٥٢). وكانت شهرة مواطنه الكسائي قد أخذت تدوي في بلدته، فرحل إلى بغداد، ولزمه منذ عصر المهدي(٥٣) ، وأخذ كل ما عنده. ثم صار يختلف إلى مجالس الرشيد. ومضى يفرغ للنحو واللغة والقرآن، حتى إذا وجد كتاب سيبويه انقض عليه يلتهمه إلتهاما، ويلتهم معه كتابات الأخفش في النحو، ومن طريف ما يروى عنه أنه مات وتحت رأسه الكتاب وكأنه لم يفارقه(٥٤).

ولا يشك أحد في اعتدال الفرّاء فبالرغم من ميوله الاعتزالية وما نسب إليه من التشيّع إلا أنه كان يسوي بين الإمام علي وبين غيره من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فلا يخصه بالصيغة المتعارفة عند الشيعة وهي (عليه السلام) وإنما يذكر اسمه مجردا من الصلاة والتسليم كما يذكر اسم أي صحابي آخر، وكتابه معاني القرآن شاهد على ذلك، حيث نجده يثني على عمر رضي الله عنه فيقول (إذا نظرت في تفسير عمر رحمه الله لم يسيء) على حين كان بعض المتشيعين يمقت عمر لمناوأته عليا (في زعمهم) بصرف الخلافة عنه إلى أبي بكر وهو أحق الجميع في رأيهم كما شبّه قتلة عثمان باللصوص فقال فيما يرويه عن ابن الزبير (أخبرني بعض الأعراب المحدثين عن ابن الزبير يعيب قتلة عثمان، فقال. خرجوا عليه كاللصوص من وراء القرية فقتلهم الله عزّ وجل شر قتلة، ونجا من نجا منهم تحت بطون الكواكب، يريد هربوا ليلا)(٥٥)، وكل ذلك يشهد للفراء بالاعتدال فلا إفراط ولا تفريط كما فعل أولئك الذين أسرفوا على أنفسهم من الفريقين، وجاء من بعده ابن قتيبة فعبّر عن منهج الاعتدال هذا خير تعبير حيث قال (والسلامة لك ألاّ تهلك بمحبته ولا تهلك ببغضه، ولا تحمل عليه ضغنا بجناية غيره ـ فان أنت فعلت، فأنت جاهل مفرّط في بغضه ـ وأن تعرف له مكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير أن تتجاوز به الموضع الذي وضعه به خيار السلف(٥٦)) فذلك مذهب الفرّاء في تشيّعه واعتزاله واعتداله.

(٥٢) معجم الأدباء ٧ : ١٠ والفهرست ص ٩٩ .

(٥٣) مجالس العلماء للزجاجي ص ٣٦٩ .

(٥٤) إنباه الرواة ٢ : ٣٥١، ونزهة الألبا ١٣٣ وشذرات الذهب لابن العماد ٢:١٩

(٥٥) المعاني ٣ : ١١٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ١٩٧٢.

(٥٦) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ص ٤٧ ط السعادة سنة ١٣٤٩ هـ وكتاب أبي زكريا الفراء للدكتور أحمد مكي الأنصاري ص ١٠٨ طبع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

تأثّر الفراء بالبصريين:

اتصل الفراء بالأخفش اتصالا وثيقا كان من مظاهره ثناء الفراء على الأخفش وإعجابه به وتقديره إياه، ولم هناك من سبيل إلى كتاب سيبويه ـ الذي جمع علم البصريين بين دفّتيه ـ إلا الأخفش الذي تخصص بالكتاب فهما وعلما حتى ادعى أكثر من ذلك فقال (كان سيبويه إذ وضع شيئا من كتابه عرضه عليّ، وهو يرى أني أعلم به منه، وكان أعلم مني وأنا اليوم أعلم منه). وقال عنه الكسائي (لم يكن في القوم ـ يعني البصريين ـ أعلم من الأخفش، نبههم الى عوار الكتاب ـ يعني كتاب سيبويه ـ وتركهم(٥٧)). فالفرّاء كان له اتصال بأعلم الناس بكتاب سيبويه خاصة وبعلم البصريين بعامة، ولذا فقد ألمّ بعلم البصريين وتعمق في دراسة الكتاب ثم نسخه واتخذه لنفسه أستاذا حتى أخرجوه من تحت وسادته بعد موته، وأيا ما كان مقصد الفراء من ذلك فقد اتخذ لنفسه أستاذا فذا في النحو هو سيبويه الذي ظلموه حيا واستفادوا بعلمه ميتا، ولا أقول أنكروا فضله بعد ذلك فانهم لم يذكروه بسوء بعد وفاته، بل رأوا فيه عالما فذّا ونحويا لا يبارى فسارعوا خلسة إلى كتابه، فالكسائي استمال الأخفش وعرف كيف يستغل علمه البصري الغزير وغيرته من شهرة سيبويه فجعله يدرّس له الكتاب خلسة حتى وعى ما فيه واطلع على منهج وقدرة سيبويه على التقعيد والنفاذ ببصيرة علمية يستخلص منه قواعده ويصنع نحوا لم يكن قبله فكفاه فخرا أن سلك الطريق غير معبّدة وأوجد مصطلحات لم يكن أحد يعلم عنها شيئا قبله، فإذا جاء من بعده من درس كتابه وحفظه ونسخه لنفسه، ثم سلك طريقا آخر وانتهج لنفسه نهجا مخالفا كان الفضل فيه أيضا للسابق. على أن الكسائي لم يكن له علم يجاري به البصريين ويطاولهم قبل أن يتتلمذ على الخليل بن أحمد وقبل أن يوجهه أستاذه الوجهة الصحيحة لاستقاء اللغة من أهل البادية، ثم توّج ذلك كله بدراسة الكتاب ونسخه وحفظه ومعرفة كل دقائقه وكيف يوافقه أو يخالفه.

---

(٥٧) مراتب النحويين لأبي الطيب ٦٨، ٦٩ ط نهضة مصر.

ثم كانت فرصة الفراء أكبر من الكسائي فثقافة الفراء تكاد تكون بصرية، وذلك استقاء من آراء الكوفيين أنفسهم الذين فاخروا بالفراء كصاحب فلسفة ومنهج كلامي استغله في إخراج النحو الكوفي على نهج يطاول به البصريين في منهجهم وإن اختلفت الغاية والوسيلة والهدف. ولست ممن يشهّر بالفراء أو يصفه بالجحود أو بما يسيء إلى شخصه كعالم فذّ وأستاذ فاضل أفاد اللغة والنحو بجهوده المضنية وعقله الكبير وورعه وتقواه. ولست أنصّب نفسي قاضيا أبرّيء هذا وأدين هذا، وإنما هدفي الوصول إلى الحقيقة العلمية الدقيقة التي تعطي لكل ذي حق حقه دون حيف أو إغداق. فإذا قلنا إن الفراء تتلمذ على الكسائي الذي جمع بين علم القراءة وعلم النحو البصري وجاب البادية بحثا عن التراث اللغوي من مصادره ثم عاد ممتليء العقل بما وعي والخرج بما جمع فكان هذا أمام الفراء منهلا سهلا، ثم ساقت الأقدار الأخفش أعلم البصريين بعلمهم وأعرفهم بكتاب سيبويه فكان أكثر من أستاذ وموجه وصاحب علم ومنهج جديد، وذو حاجة قضاها له الكسائي، فقضى للكسائي كل بغيته ومتمناه، ولازمه الفراء كما لازم الكسائي وكان مجلسهم حول كتاب سيبويه يتدارسونه ويحاولون الخلاص منه الى منهج جديد، فاتصال الفراء بالمدرسة البصرية كان إتصالا وثيقا عن طريق الكتاب، والأخفش البصري، ويونس بن حبيب، وكلاهما كانت له آراؤه الخاصة.

هذا عن تلمذة الفراء على الأخفش البصري، والكسائي الكوفي ذي العلم البصري، وكتاب سيبويه جامع آراء البصريين ومصطلحاتهم، وليس هناك من يجحد هذا الفضل سوى مكابر، ثم تتلمذ الفراء على يونس بن حبيب الذي كان له الفضل الأكبر في توجيه الفراء إلى التجديد والابتكار فقد روي المؤرخون أن الفراء أخذ عن يونس البصري واستكثر منه، وكتابه معاني القرآن يشهد بذلك، ففيه روايات كثيرة عن يونس تحمل آراء كثيرة في النحو بل إنه فضل يونس على الكسائي أستاذه ومؤسس مدرسته، وكان يصف الكسائي بآراء يمكن تفسيرها على أنها تقليل من الكسائي النحوي، ومنها قوله (إن الكسائي تعلم النحو على الكبر(٥٨)) وقوله (مات الكسائي وهو لا يحسن حدّ نعم وبئس، ولا أنَّ المفتوحة، ولا حد الحكاية(٥٩). وقوله (وكان الكسائي يقيس عبدالرحمن

(٥٨) بغية الوعاة ٣٦٦ ط السعادة. (٥٩) معجم الأدباء ١٣ : ١٨٥ ط دار المأمون .

وعبدالعزيز على عبدالله وما لذلك صحة(٦٠)) وقوله (وقد قال الكسائي فيه قولا لا أراه شيئا(٦١)). وقد أشار «بركلمان» إلى تأثر الفرّاء بيونس بقوله (أخذ ايضا عن يونس بن حبيب البصري خصوصا معاني النحو في كتابه الحدود(٦٢)).

لاشك أن ذلك يوضح جانبا هاما ودقيقا لفهم منهج الفراء في مخالفة المدرسة البصرية التي أتقنها عن طريق دراسته وفهمه للكتاب فهما جيدا، قال الجاحظ (أردت الخروج إلى محمد بن عبدالملك وزير المعتصم ففكرت في شيء أهديه له، فلم أجد شيئا أشرف من كتاب سيبويه، فلما وصلت إليه قلت له: لم أجد شيئا أهديه لك مثل هذا الكتاب، ولقد اشتريته من ميراث الفراء ، فقال: والله ما أهديت لي شيئا أحبّ إليّ منه). ويقال: إن الجاحظ لما وصل إلى ابن الزيات أراد أن يعلمه بأنه أحضر معه كتاب سيبويه، وأنه يرغب في إهدائه له. فقال له ابن الزيات (أوظننت أن خزائننا خالية من هذا الكتاب؟ فقال الجاحظ: ما ظننت ذلك ولكنها بخط الفراء، ومقابلة الكسائي، وتهذيب عمرو بن الجاحظ ـ يعني نفسه ـ فقال ابن الزيات: هذه أجلّ نسخة توجد وأعزّها فأحضرها إليه، فسرّ بها، ووقعت منه أجلّ موقع(٦٣)).

مصادر دراسة الفرّاء : المثبتة أو المنقولة عنه: ـ

وهي نفس المصادر التي اعتمد عليها الكسائي وهي:

١ ـ القرآن الكريم وقد كان يضعه في المستوى الذي ينبغي وضعه فيه، وهو المستوى الذي ينحطّ عنه أي مستوى لأي كلام، بالغا ما بلغ من نقاء التراكيب وخلوصها عمّا يشوّه معالم الأسلوب لأنه نزل بلغة قريش التي خلت من مستبشع الألفاظ ومستقبح اللهجات كالكشكشة والعجعجة، والاستنطاء والعنعهنة، وغيرها.

---

(٦٠) خزانة الأدب للبغدادي ٤ : ٤٢ ط السلفية .

(٦١) معاني القرآن للفراء ٣٧٨ مخطوطة ، راجع المطبوع جـ ٣

(٦٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (ترجمة الفراء) .

(٦٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ : ٨٤٧ وأنباء الرواة ٢ : ٣١٣ .

٢ ـ القراءات المختلفة وإن شذّت في نظر كثير من النحاة.

٣ ـ شواهد كثيرة من الشعر وكلام العرب، سواء أوصل إليه عن طريق المشافهة، بإتصاله بالفصحاء، وروايته عمن كان يثق به من الأعراب، كأبي ثروان وأبي الجرّاح وأبي فقعس وغيرهم، أم عن طريق المناقلة كما روي عن الكسائي ويونس وغيرهما.

جهـود الفـرّاء العلمية:

أخذ الفرّاء على عاتقه البحث العلمي وأخذ ينفق جهودا جبّارة في محاولة لا تعرف الكلل في مراجعة كتاب سيبويه وتسجيل ملاحظاته كما مضى يحاول التصنيف لطلابه في اللغة والنحو والعلوم المتصلة بالقرآن الكريم. ويظلّ في هذه الحياة العلمية الخصبة حتى ٢٠٢ هـ ، ثم حدث أن كتب إليه عمر بن بكير الراوية الأخباري النسّـابة ـ كان منقطعا إلى الحسن بن سهل في أثناء نيابته عن المأمون ببغداد حين كان لا يزال بمرو قبل تحوله منها إلى عاصمته ـ أن الحسن بن سهل يسأله عن الشيء بعد الشيء من القرآن الكريم فلا يحضره فيه جواب، والتمس منه أن يكتب للناس كتابا يرجع معهم إليه وكأنه أثار في نفسه عزيمة كان قد اعتزمها في تصنيف كتاب جامع في القرآن الكريم، وسرعان ما عقد للناس مجالس أملى فيها كتابه الرائع (معاني القرآن) وامتـدّت هذه المجالس من رمضان في السنة المذكورة حتى شهور سنة ٢٠٤ هجرية وهو فيه لا يفسرّ الذكر الحكيم بالطريقة المعروفة، وإنما كان يتخيرّ من الآيات على ترتيب السور يدير حوله مباحثه اللغوية والنحوية، وبذلك يحلّ مشكلها ويوضح غامضهـا، مدليا دائما بآرائه النحوية، ومعبّرا بما اختاره للنحو من مصطلحات جديدة، ناثرا بذلك من حين إلى حين آراء أستاذه الكسائي وآراء النحويين البصريين.

ويقدم المأمون بغداد، ويعقد للعلماء من كل صنف مجالس بحضرته يتحاورون فيها ويتناقشون ولا يكاد يترك له مستشاروه من أمثال ثمامة بن أشرس المعتزلي عالما إلاّ

ويشخصونه إلى مجالسه، ويطلب ثمامة الفرّاء ويلقاه ويعجب به وبثقافته كما مرّ بنا إعجابا شديدا ويقدمه إلى المأمون فيحظي بإعجابه. وربما أعجبهما فيه بالاضافة إلى علمه الغزير باللغة والنحو والقرآن (في ظنّهم) اعتزاله، إذ كان المأمون يعتنق الاعتزال مثل مستشاره ثمامة. ولم يلبث أن اختاره مؤدّبا لابنيه. وحثّه على تأليف كتاب يجمع أصول النحو، ويقال أنه أفرد له حجره في الدار ووكّل به من يقومون بكل حاجاته وصيرّ له جماعة من الورّاقين ليملي عليهم الكتاب. ويقال إنه ظلّ يمليه ويصنّف فصوله ومواده في سنتين، وهو كتاب الحدود، وفي فهرست ابن النديم تعريف دقيق بما تشمل الحدود فيه من فصول النحو. وقد اتّصل بطاهر بن الحسين قائد المأمون المشهور الذي قضى على أخيه الأمين. وكان يعني بابنه عبدالله وبفصاحته، ويظهر أنه لحظ عليه بعض اللحن والخطأ في كلامه أو في بعض كتابته، فطلب إلى الفراء أن يكتب له كتابا يقفه فيه على اللحن المتفشي على ألسنة العوام، فصنّف كتابه (البهاء أو البهي) فيما تلحن فيه العامة. وصنّف لعبدالله كتابا ثانيا هو كتابه (المذكر والمؤنث) وهو مطبوع. ومازال يتابع هذا الجهد العلمي المثمر حتى لبّى نداء ربّه وهو في طريقه إلى مكّة سنة ٢٠٧ للهجرة. وبالاضافة إلى ما عنى به الفرّاء من رواية اللغة ودراسة صناعة الاعراب، كان قد عني بالقرآن، بتفسيره ورواية أحرفه، وكان قد أخذ بعض هذه الأحرف عن الكسائي وعدّه ابن الجزري في جملة من رواها عنه، وإن قال إنه من المقلين(٦٤).

وكان للفرّاء كثير من الأعمال القرآنية، متمثلة في كتاب (معاني القرآن) وكتاب (المصادر في القرآن الكريم) وكتاب (الجمع والتثنية في القرآن) . واختلطت هذه الأعمال بعضها ببعض، فكان منها نحو الفرّاء. وذلك لأن للنحو عند علمائه صلة بالأعمال القرآنية، بل لا يزال النحو مسخرا لخدمة القرآن وأحرفه، والقراءات عند نحاة الكوفة كانت من المصادر التي اعتمد عليها النحو الكوفي. وقد ذكر المترجمون للفراء كتبا كثيرة بعضها في اللغة، وبعضها في النحو، وبعضها في التفسير، وأكثرها مما يتصل باللغة والنحو فذكر ابن النديم ـ غير ما سبق ـ كتاب الوقف والابتداء، وكتاب النوادر، وقد رواه تلميذه سلمة بن عاصم، وكتاب المقصور والممدود وكتاب المذكر والمؤنث، وكتاب الحدود. وليس

(٦٤) ابن الجزرى غاية النهاية ١ : ٥٣٦ .

من هذه الكتب كتاب واحد جامع لأصول النحو ومسائله، أو متمحض لموضوعات، سوى كتاب الحدود، كما تشعرنا به الموضوعات التي انبنى الكتاب عليها، والتي ذكرها ابن النديم، وهو كغيره من كتب الفراء وجمعه ، ورواه تلاميذه. ولم يبق من كتبه إلا كتابان:

١ - كتاب الأيام والليالي، وهو كتاب في اللغة تناول موضوعا خاصا يتعلق بالأيام والأسابيع والشهور وأسمائها العامة المعروفة، وأسمائها التي يستعملها فريق من العرب دون فريق.

٢ - كتاب معاني القرآن مطبوع). ومن هذا الكتاب في دار الكتب المصرية بعضها مخطوط وبعضها مصور وقد بنى الفراء كتابه كما أشارت القصة على التفسير ولكنه كان قد حشى تفسيره بكثير من التفسيرات اللغوية لشرح غريب القرآن، وبكثير من الآراء النحوية على المذهب الكوفي لاعراب ما يشكل إعرابه من آياته موضحا آراءه بكثير من النقول عن العرب بسماعة ممن وثق به من فصحاء الاعراب ، وبروايته عن الكسائي، أو بحكايته عن يونس أحيانا، ومستشهدا لأقواله فى إعراب الآيات بكثير من القراءات وشواهد الشعر التى صحّت روايتها عنه.

٣ - كتاب الحدود للفرّاء : ذكر ابن النديم[٦٥] أن كتاب الحدود للفرّاء قد تضمّن فصولا من حدّ الاعراب في أصول اللغة العربية، وحدّ النصب المتولّد من الفعل، وحد (مِنْ ورُبَّ) وحد العدد، وغير ذلك من الحدود التي تعرض لموضوعات النحو المختلفة ، وهو عمل ضخم يدل على أن الفرّاء كان قد عرض لجميع أبواب اللغة، وأن له في كل موضوع منها رأيا كما أن أقواله الكثيرة المبثوثة في كتابه (معاني القرآن) والتي نقل النحاة كثيرا منها في كتبهم، تؤيد ذلك، وقد كان الكوفيون يرون فيالفرّاء مثالا جديدا لم يروا له نظير بين أصحابهم، فقال قائل منهم (لولا الفرّاء ما

(٦٥) الفهرست لابن النديم ص ١٠٠ .

كانت اللغة، لأنه حصلها وضبطها، ولولاه لسقطت العربية، لأنها كانت تتنازع، ويدعيها كل من أراد، ويتكلم الناس عليها على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب)[٦٦]. وقال آخر (لو لم يكن لأهل بغداد من علماء العربية إلا الكسائى والفراء لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس، وقال: (الفراء أمير المؤمنين فى النحو).

بين الكسائي والفرّاء:

بالمقارنة بين الكسائي والفراء نجد أن الكسائي كان نحويا، وكان قارئا لا يغلب عليه أحد الوصفين، وأن الفرّاء كان قد غلب عليه الجانب اللغوي، وله دراسات في القرآن وتفسيره وروايات لأحرفه. وللفراء باع طويل في تطور الدراسات القرآنية في الكوفة، والتي تعتمد على الاقراء والاعراب بمعناه الاصطلاحي جميعا. وإذا كان الكسائي قد وضع أسس هذه المدرسة الجديدة وجمع لها مادة درسها فصل ورسم المنهج الذي يعتمد عليه انشاؤها فإن الفرّاء قد تكفّل باتمام البناء وتعهد المدرسة بالنمو، وأعاد النظر فيما جاء به الكسائي، فأخذ منه ما يتفق مع طبيعة المدرسة، وبني منهجها على أساس علمي جديد. قال (جو تولد فايل) : (ولمّا كان النحو أقوى خصائص الفرّاء، فقد اتخذ مذهبا خالف به معاصريه بل خالف الكسائي نفسه كذلك). ثم قال في موضع آخر (ولكنّ الفرّاء بوجه عام لم يهتمّ إلا قليلا جدا بالأخذ المتناقل في هذا العلم، بل يبدو عليه طابع من يؤسس فرقة أو مذهبا خاصبا به، وهتو يختلف عن سيبويه اختلافا بيّنا)[٦٧].

والفرّاء في آرائه يوافق الكسائي في أكثر المسائل والأصول لأنه درس عليه وأخذ عنه منهجه، وكثيرا ما نرى النحاة في نقولهم عن الكسائي والفراء يقولون: ذهب الكسائي والفراء إلى كذا وكذا أو كان الكسائي والفراء يذهبان إلى كذا وكذا... إلى غير ذلك من العبارات ولكن نحو الفراء يختلف عن نحو الكسائي من حيث الشكل والموضوع: أما الشكل فالكسائي في نحوه كان يحتذى منهج المحدثين والقراء، وكان أبعد ما يكون عن التأثر بالتفكير الفلسفي، فلم تعرف له صحبة مع أحد المتكلمين ولا اتصالا بآرائهم، ولم

---

(٦٦) معجم الأدباء ٢٠ : ١١.

(٦٧) مقدمة الانصاف : ترجمة الدكتور النجار .

نلمس في نحوه أي أثر للتكفير الكلامي، اللهم إلا في كلامه في القياس واعتداده به في دراسته، وقد كان تأثره بمنهج المتكلمين عن طريق دراسته النحو البصري واضحا. وكان الفراء من المتكلمين، وكان ينحو في مصنفاته منحى الفلاسفة، كما قيل عنه، وقد ترك ذلك في نحوه ظلا واضح المعالم تمثّل في تعليله القضايا النحوية وفلسفة الأحكام، بمثل ما كان البصريون يعللون ويفلسفون.

وأما الموضوع فللفراء أقوال أقوال كثيرة يخالف بها أستاذه، إما لأن مقاييسه العامة تختلف عن مقاييس الكسائي، وإما لأنهما يختلفان فيها من حيث وجهة النظر الخاصة، التي قد تختلف بين حين وحين في الشخص الواحد. وكثرا ما يختلف تلاميذ المدرسة الواحدة في وجهات النظر الخاصة، اختلافا يرجع إلى ما كان عليه كل منهم من حذق وبراعة وسعة إطلاع، كما اختلف سيبويه مع الخليل، وكما اختلف الخليل مع يونس والأخفش مع الخليل وسيبويه، وهم جميعا ينزعون نزعة واحدة وينتسبون إلى مدرسة واحدة.

فليس غريبا إذن أن تختلف وجهة النظر عند الكسائي والفرّاء وقد اختلفت فعلا، وتمثل هذا الاختلاف في هذه المسائل الكثيرة، التي كان يقول الكسائي فيها بقول يخالفه الفرّاء فيه. وهذا الخلاف لا يمسّ وحدة المنهج العام الذي رسمه الكسائي وسار عليه أتباع المدرسة الكوفية.

نحو الفرّاء (نحو المدرسة الكوفية):

يعتبر كتاب الفرّاء معاني القرآن هو المصدر الذي صدرت عنه كتب النحو تحمل آراء الفراء النحوية ، والمنبع الذي استقى منه تلاميذه، وأتباع المذهب الكوفي، وقد تناهت إلى أبي العباس ثعلب نسخة من هذا الكتاب، كان يمليها على أصحابه، ولم يكن أبو بكر بن الأنباري ممن حضر لإملاء أبي العباس، لذلك كان يقول: (ما أسيت على شيء كما أسيت على تركي السماع لكتاب المعاني للفرّاء من أبي العبّاس أحمد بن يحيى وإنما كان

يقطعني عنه الحديث(٦٨)). وعن طريق هذا الكتاب، وما حمله تلاميذه عنه نقل إلينا نحو الفرّاء أو نحو المدرسة الكوفيَة، لأن أكثر ما كان للكوفيين من آراء إنما هو للفراء، ولو تصفحت كتب النحو المتأخرة ورصدت نقولها عنه وعن سائر الكوفيين، لرأيت نقولها عن الفراء تزيد على نقولها عن سائر الكوفين. يضاف إلى هذا نقولها التي خلت من النسبة إلى أحد الأئمة ونسبت إلى الكوفيين عامة، لأن أكثرها يرجع إلى أقوال الفرّاء، يؤيد ذلك أمثلة كثيرة منها على سبيل المثال:

١ ـ قال أبو البركات بن الأنباري (ذهب الكوفيون إلى أن نعم وبئس اسمان مبتدآن. وذهب البصريون إلى أنهما فعلان ماضيان لا يتصرفان(٦٩). وهذا الرأي إنما هو للفرّاء، فهو الذي حكى (أن أعرابيا بشّـر بمولودة فقيل له: نِعْمَ المولودَةُ مولودَتُكَ. قال: واللَّهِ مَا هِيَ بِنِعْمَ الْوَلَدَ(٧٠)) يؤيد رأيه باسميتها بدخول حرف الجر عليها.

٢ ـ وقال أبو البركات أيضا (ذهب الكوفيون إلى أن (لولا) ترفع الاسم بعدها نحو لَوْلاَ زَيْدٌ لأكْرَمْتُكَ، وذهب البصريون إلى أنه يرتفع بالابتداء)(٧١). وهذا الرأي إنما هو للفراء أيضا، وقد جاء في كتابه (معاني القرآن) قوله (وقوله تعالى: (ولَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ ونِسَـاءٌ مُؤْمِنَاتٌ) رفعهم بلولا، ثم قال (أن تطؤوهم) فأن في موضع رفع بلولا)(٧٢). وقال الراضي (قال الفرّاء: لولا هي الرافعة للاسم بعدها، لاختصاصها بالأسماء كسائر العوامل)(٧٣).

٣ ـ وقال أبو البركات أيضا (اختلف مذهب الكوفيين في رفع الفعل المضارع نحو: يَقُومُ زَيْدٌ وَيذْهَبُ عَمْرٌو. فذهب الأكثرون إلى أنه يرتفع لتعرّيه من العوامل

(٦٨) طبقات الزبيدى (أصحاب الفرّاء وسلمة بن عاصم).
(٦٩) الانصاف (مسألة ١٤)
(٧٠) شرح المفصل لابن يعيش ٧: ١٢٧، ١٢٨.
(٧١) الانصاف (مسألة ١)
(٧٢) معاني القرآن ١ : ٤٠٤.
(٧٣) شرح الرضي على الكافية ١ : ١٠٤ .

الناصبة والجازمة. وذهب الكسائي إلى أنه يرتفع بالزائد في أوله... وذهب البصريون إلى أنه يرتفع لقيامه مقام الاسم(٧٤)). وهذا الرأي الذي ذهب إليه الأكثرون، والذي شاع على ألسنة المعربين حتى يومنا هذا، إنما هو للفرّاء، فقد قال الرضي: (عامل الرفع في المضارع هو التجرد عن العوامل، كما هو مذهب الفرّاء)(٧٥).

٤ - والى الفرّاء ينتهي ما عرف عن الكوفيين من (النصب على الخلاف) فهو صاحب الرأي فيه، وإن خالفه الكوفيون في نطاق تطبيقه، فقالوا به في مسألتين:
الأولى : نصب الظروف التي تقع أخبارا مثل مُحَمَّدٌ عِنْدكَ.
الثانية : نصب المفعول معه كقوله تعالى ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾(٧٦) (سورة يونس).
الثالثة : وتفرّد بها الفرّاء وحده وهي نصب الفعل المضارع الواقع بين الواو والفاء المسبوقتين بنفي أو طلب.

فنحو الكوفة عند الكسائي والفرّاء كنحو البصرة عند سيبويه والخليل: دراسات في النحو الاصطلاحي، إلى جانب دراسات في التصريف أو الاشتقاق، وما يتعلّق ببناء الكلمة العام، إلى جانب عرض لبعض الظواهر اللغوية التي تنبني على ما للأصوات من خصائص حين تتألف مع بعضها البعض في ثنايا الكلمات كالادغام والامالة والابدال والاعلال، وغيرها.

فالكسائي إذا كان قد رسم منهج النحو الكوفي على أسس ثلاثة هي:

١ - الاتساع في الرواية بحيث تفتح الأبواب على مصاريعها لرواية الأشعار والأقوال والقراءات الشاذة.

---

(٧٤) الانصاف (مسألة ٧٤).

(٧٥) شرح الرضي على الكافية ٢ : ٢٣١ .

(٧٦) سورة يونس ٧١

٢ ـ الاتساع في القياس بحيث يعتدّ في قواعد النحو بالشاذ والقليل النّادر.

٣ ـ الاتساع في مخالفة البصريين اتساعا قد يؤول الى مدّ القواعد وبسطها بآراء لا تسندها الشواهد اللغوية. بل قد يؤول أحيانا إلى رفض المسموع الشائع على نحو موقفه وموقف الفراء من أعمال أسماء المبالغة. فان الفرّاء قد مضى ـ على اثر أستاذه ـ يتّسع بهذه الجوانب، وكان عقله أدق وأخصب من عقل الكسائي، إذ كان مثقفا ثقافة كلامية فلسفية، فكانت قدرته على الاستنباط والتحليل والتركيب واستخراج القواعد، والأقيسة والاحتيال للآراء وترتيب مقدماتها لا تقرن إليها قدرة أستاذه، وقد تحوّل بها إلى تنظيم واسع لما تركه من أسس بانيا عليه من اجتهاده ما أعطى النحو الكوفي صورته النهائية، وهي صورة تقوم على الخلاف مع نحاة البصرة في كثير من الأصول، مع النفوذ إلى وضع مصطلحات جديدة والخلاف مع الخليل وسيبويه في تحليل بعض الكلمات والأدوات وفي كثير من العوامل والمعمولات، ومع مدّ القياس وبسطه ليشمل كثيرا من اللغات والابقاء مع ذلك على فكرة الشذوذ ومخالفة القياس حتى في القراءات.

بين الفرّاء وسيبويـه:

قال الجاحظ عن مذهب الفَراء (إن الفرّاء لم ينتفع بالنظر في هذا الكتاب (كتاب سيبويه كبير نفع لانه لم ينظر فيه نظر ناصح لنفسه ولا مسائلة لمن وصل اليه العلم من جهته ولا معترف له بالحق فيه ولا صادق في روايته عنه ما أخذ منه، فانه سرق بعضا وادّعاه لنفسه، وسترحق صاحبه فلم يشكره، ونقل عنه مسائل وعزاها إلى الخليل)(٧٧). وقال الزبيدي عن منهج سيبويه والفرّاء: (وإنما صحّ قول الفرّاء لأنه عمل العربيّة والنحو على كلام العرب فقال: كل مسألة وافق اعرابها معناها، ومعناها اعرابها فهو الصحيح وإنما لحق سيبويه الغلط لأنه عمل كلام

(٧٧) إنباه الرواه للقفطي ٢ : ٢١٣ .

العرب على المعانيٰ وخلىّ عن الألفاظ، ولم يوجد في كلام العرب ولا أشعار الفحول إلا ما المعنى فيه مطبق للاعراب، والاعراب مطبق للمعنى... والفراء حمل العربيّة على الألفاظ والمعاني فبرع واستحقّ التقدمة، وذلك قولك (مَاتَ زَيْدٌ) فلو عاملت المعنى لوجب أن تقول (مَاتَ زَيْدًا) لأن الله هو الذي أماته ولكنك عاملت اللفظ فأردت: سَكَنَتَ حَرَكَاتُ زَيْدٍ(٧٨)).

الفرّاء وأصول النحو البصري:

أما الأصول فقد خالف البصريين فيها في أربع مسائل أساسية:

المسألة الأولى: عدم تفرقته بين ألقاب الاعراب والبناء، وكان حريّا أن يفصل بينهما كما فصلت مدرسة البصرة تمييزا للألقاب التي يتبعها التنوين مع الألقاب الأخرى التي لا يتبعها.

المسألة الثانية: هي أن المصدر مشتق من الفعل، لا كما ذهب إليه البصريون من أن المصدر هو الأصل والفعل مشتق منه، وكان يؤيد رأيه هو والكوفيون بأن المصدر يصح بصحة الفعل ويعتل باعتلاله، فتقول قِوَام من قَاوَم وقِيَام من قَامَ، وأن الفعل يعمل فيه النصب تقول كَتَبَ كِتَابَةً، وأنّه يؤكده كالمثال المذكور والمؤكد يتلو ما يؤكده، وأيضا فائه توجد أفعال لا مصادر لها مثل نعم وبئس وليس إلى غير ذلك من حجج تحاور معهم فيها البصريون طويلا مؤيدين رأيهم ببراهين كثيرة(٧٩).

المسألة الثالثة: هي إعراب الأفعال، وأنّه أصل فيها كالأسماء لا أنّه أصل في الأسماء فرع في الأفعال، وكان سيبويه والبصريون يذهبون إلى الرأي الثاني لأن الاسم تتعاوره معان مختلفة، وهي الفاعلية والمفعولية والاضافية، ولولا الاعراب ما استبانت هذه المعاني في صيغة الاسم ولوقع اللبس بخلاف الفعل، فان اختلاف صيغه في التركيب يؤمّن من اللبس فيه. وذهب الفرّاء إلى أن الاعراب أصل فى الأفعال كالأسماء واحتجّ بأنها هي

(٧٨) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى (ت ٣٧٩ هـ) ص ١٤٣ ومابعدها الطبعة الأولى .

(٧٩) الانصاف (مسألة ٢٨) والايضاح في علل النحو للزجاجي ٥٦ ، ٦٢ .

الأخرى تختلف معانيها الزمنية، فقد تدل على الحال أو الاستقبال، وقد تدل على المضي، ومعروف ان المضارع قد يدلّ على الاستمرار مثل (يَشْعُرُ) إذ تقوم مقام (شَاعِرُ) وفي هذه الحالة يصبح المضارع مثل الاسم الذي يلزم المسمّى ولا يزايله(٨٠).

المسألة الرابعة: مسألة تقسيم الأفعال. فالبصريون يقسّمون الفعل القسمة المعروفة إلى ماض ومضارع وأمر، وأما الفراء وتبعه الكوفيون فقّسمه إلى ماض ومضارع ودائم، ولا يريد بالدائم فعل الأمر وإنما يريد اسم الفاعل(٨١). وأما فعل الأمر فمقتطع عنده من المضارع المجزوم بلام الأمر، يقول (العرب حذفت اللام من فعل المأمور المواجه لكثرة الأمر خاصة في كلامهم خاصة، فحذفوا اللام كما حذفوا التاء من الفعل المضارع من مثل لِتَضْرِبْ ولِتَفْرَجْ) وأنت تعلم أن الجازم أو الناصب لا يقعان لا يقعان إلا على الفعل الذي أوله الياء والتاء والنون والألف. فلما حذفت التاء ذهبت باللام، وأحدثت الألف في قولك اضرب وافرح، لأن الضاد ساكنة، فلم يستقم أن يستأنف بحرف ساكن فأدخلوا ألفا خفيفة (ألف الوصل) يقع بها الابتداء، كما قال (ادَّارَكُوا) و (اثَّاقَلْتُمْ) . وكان الكسائي يعيب قولهم (فَلْتَفْرَحُوا) لأنه وجده قليلا فجعله عيبا، وهو الأصل (أصل الأمر) ولقد سمعت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في بعض المشاهد (لِتَأْخُذُوا مَصَافَّكُمْ) يريد به خذوا مصافكم(٨٢). وبذلك يكون الأمر عنده مجزوم الآخر لا مبنيا، فهو معرب إعراب أصله المتقطع منه(٨٣). وعلى ضوء ما هو معروف عند المعتزلة من أن المسلم الفاسق في منزلة وسطى بين المؤمن والكافر ذهب إلى أن كلا التي يضعها الخليل والبصريون في باب الأسماء ليست اسما ولا فعلا بل هي مرتبة متوسطة بينهما، واحتجّ لذلك بأنهّا لا تنفرد أي أنها ليس لها مفرد، وأنها كالفعل الماضي المعتل الآخر المنقلبة ألفه عن ياء، اذا وليها ظاهر لزمتها الألف واذا وليها ضمير قلبت ياء فتقول (رَأَيْتُ كِلا الرَّجُلَيْنِ وَرَأَيْتُ كِلَيْهِمَا) كما تقول قضى الحقّ وقضيته(٨٤)

هذا .... وبالله التوفيق ،،،،،،،،

(٨٠) الزجاجي ٨٠ والرضي على الكافية ١ : ١٩ والهمع ١ : ١٥ .

(٨١) معاني القرآن ١ :١٦٥ وقارن بصفحة ٣٣

(٨٢) معاني القرآن ١ : ٤٦٩.

(٨٣) الهمع ١ : ٩ . (٨٤) طبقات الزبيدى ١٤٥ ومدارس نحوية ١٩٦ ، ١٩٧.

